سلسلة معماريون أحسائيون (1)

الأستاد محمد الأحمد الشبعان

أستاد البناء ومعماري المباني التاريخية

سعيد عبدالله الوايل – باحث في التراث العمراني

أصول حرفة البناء وأستاذتها:

برزت الأحساء كمدينة تاريخية احتضنت بين جنباتها مجموعة من الحرفيين الأساتذة الذين قامت على أكتافهم صروح معمارية بارزة وفنون زخرفية أصيلة جعلتنا نقف اليوم أمامها وقفة إجلال وإكبار لتلك السواعد والعقول الفذة التي أعطت ولا تزال تعطينا درساً عظيماً في كيفية استفادة الإنسان من طاقاته الخلاقة في استنباط وسائل بيئية محلية تمكنه من تحقيق تطلعاته. لقد كانت تلك الكوكبة من البنائين الماضين وعطاءاتهم وإبداعاتهم ماثلة أمامنا حتى بعد رحيلهم، وقد أشرف الكثير من أساتذة البناء الأحسائيين على أبنية خارج الأحساء، في الرياض والدمام والكويت والبحرين .

وقد كان لحرفة البناء أصولها وقوانينها (ستودية) والتي درجت عليها أجيال وطبقات من الحرفيين بكافة مستوياتهم، فأساتذة الحرفة وأربابها هم الذين كان بيدهم الاختيار للحرفيين وتوزيعهم بحسب قدراتهم ومهاراتهم، حتى الأساتذة على درجة مختلفة من المهارة والخبرة، فالأستاد الكبير هو المهندس والمسؤول الأول والمباشر عن تخطيط المبنى واختيار العمال وتوزيعهم، وهناك أستاذة آخرون يعملون تحت إمرته في صف الحجارة وعمل المداميك التي تتألف منها الجدران الطينية، وهناك

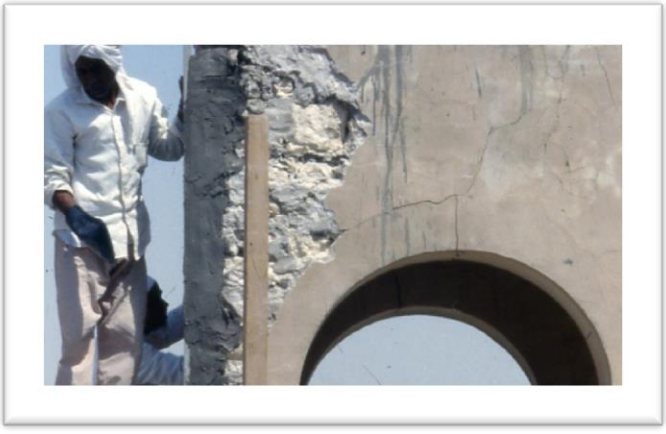

الأستاد الذي يقوم بتغطية الجدران بالطين والجص «التخشيب» .

وتحيلنا معرفة السيرة الذاتية لمعظم أساتذة البناء البارزين التي يتناقلها من عمل معهم من البنائين أو من عاصرهم أنهم كانوا من المبدعين، وتؤكد تميز حياتهم الشخصية في عدة نواح إضافة للوجاهة والمكانة الاجتماعية ل (الستاد)، وعرف عن استادية البناء الحلول الذكية التي ساهموا في التوصل إليها في محاولاتهم المستمرة لجعل المبنى أكثر راحة وتكيفاً مع الظروف والأجواء الخارجية في حدود الإمكانات المتاحة، وقدرة الفرد من دون أعباء مالية مرهقة .

أشهر الحرفيين:

امتهن العديد من الأحسائيين مهنة البناء والتي كانت توفر فرص عمل مقبولة لمن هم غير مرتبطين بأعمال أو حرف أخرى، فحرفة البناء كانت تستقطب إليها أي شخص يقوى على العمل، لكن لا يعني ذلك سهولة أن يصبح أستاذ بناء فهذا يعتمد على شطارة العامل، وقد تنقل أهل الحرفة للعمل في البناء في الأحياء المختلفة وبين المدن والقرى الكثيرة، وقد عرفت أسرة العبدالسلام التي تقطن حي الكوت والرفعة بحرفة البناء التقليدي، ومن أشهر أساتذة البناء في هذه العائلة أحمد العبد السلام الذي وضع خطة ترميم مسجد القبة بقصر إبراهيم، بعدما احتار المهندسون الذين جاؤوا من بغداد مع أحمد مدحت باشا والي بغداد

وذلك في عام 1288هـ[1]، وعلى عبدالسلام العبدالسلام الذي شيد جامع الظهران بهندسة بناءه الفريدة في بناء السقف بطريقة القبيب، ومنارتي المسجد الشاهقتين، وعلي عبدالعزيز العبدالسلام وإخوانه .

وتعتبر عائلة الشبعان التي تقطن حي الكوت في مدينة الهفوف من أهم العوائل التي عمل أهلها في البناء، كالأستاذ صالح الشبعان وابنه محمد صالح الذي عرف بمهارته في البناء والنقوش الجصية وساهم في بناء الكثير من المباني التاريخية منها قصر السراج ومطار الهفوف، كذلك عيسى الشبعان رحمهم الله جميعاً، ومن عائلة الشبعان ظهر أحد أعلام هذه الحرفة وهو الأستاذ محمد الأحمد الشبعان .

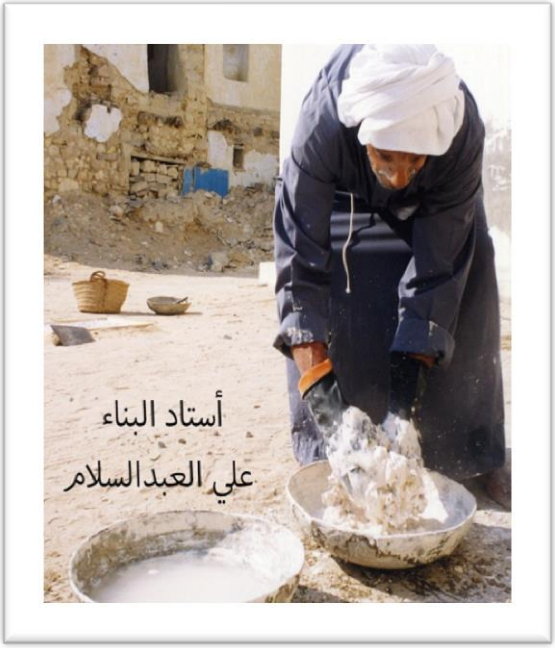

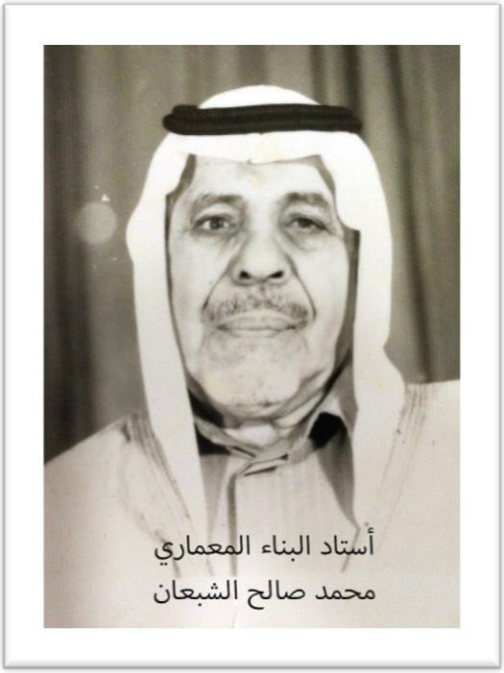

ومن أساتذة البناء المعروفين كذلك الأستاذ عبداللطيف العرادي وسعد السلطان، وعبدالوهاب الشيخ صالح وعثمان النويحل وعبدالرحمن الحمادي وعبدالله الفيصل، وعبدالحي أحمد عبدالحي وأخوه عبدالله، ومن عائلة المرزوق عبدالله عبدالوهاب المرزوق وإخوانه ياسين وعلي، وفي مدينة المبرز عرفت بهذه المهنة بعض العوائل منهم اعيال الشويرد والسماعيل منهم الأستاذ علي السماعيل. كذلك مارس مهنة البناء الكثير

[1] عبدالله الخماس، قصر إبراهيم، جريدة اليوم، ع 13147، 13يونيو 2009م .

من أهالي القرى والأرياف المحيطة بمدن الأحساء، ففي قرية الشعبة على سبيل المثال امتهن حرفة البناء اعيال البوحسن والسماعيل، ولم يقتصر عامل البناء على مكان إقامته فقد كان يتنقل من مكان لآخر حسب الحاجة .

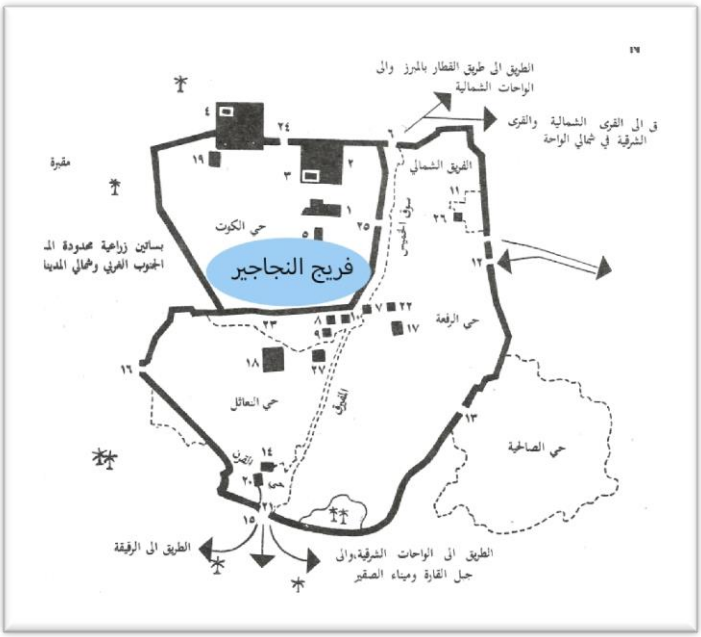

الأستاذ محمد الأحمد الشبعان:

البيئة التي نشأ فيها:

ولد الأستاذ محمد الأحمد الشبعان رحمه الله في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري خلال فترة الحكم العثماني الثاني وتوفي في عام 1346هـ منذ 96 عاماً كأستاذ ومعماري تفرد بأعماله وانجازاته الحضارية التي شهد بها القريب والبعيد وبقيت بعض أعمله شاهدة على روعة فكر هذا المعماري الفذ التي ترجع له الكثير من المباني السكنية والمساجد والحسينيات والمحلات التجارية والقصور في الهفوف والمبرز والقرى ومناطق ودول أخرى .

عاش الأستاذ محمد الأحمد في فريج النجاجير في حي الكوت وسط أسرة عريقة عرفت بحرفة البناء وكان لها إسهامات جليلة في تشييد المباني التاريخية، حيث استطاع أن يخطط لمباني كثيرة كالقصور والمنازل والمحلات التجارية واستطاع الأستاذ محمد الأحمد بخبرته في تخطيط مبان معقدة وصعبة ومتعددة الأدوار على الرغم من هشاشة المواد المحلية مثل عمارة القصيبي في شارع سوق الخميس ذلك المبنى الكبير يتكون من ثلاثة أدوار ويحتوي على العديد من المرافق والمكاتب والغرف والمحلات التجارية .

تعلم ممن سبقوه لكننا لا نعرف على وجه التحديد من هم لقلة المصادر التي تهتم بهذا الموضوع، ويذكر الحرفي الأستاد عبدالله محمد صالح الشبعان أن الأستاد محمد الأحمد تنقل بين عدة مناطق لكسب الخبرة في حرفة البناء منها مدينة البصرة في العراق ومدينة بوشهر على ساحل فارس[2] .

فكره وإنجازاته المعمارية:

ونحن نستذكر سيرة هذا المعماري الكبير الأستاد محمد الأحمد الشبعان رحمه الله نحاول تتبع الفكر المعماري الذي عمل على ايجاده وتطويره بكل اقتدار وحرفية، مستفيداً من ذكائه وفطنته ومواهبه ومن الفرصة التي أتيحت له في الفترة التاريخية التي عاش فيها، فقد عاصر الأستاد محمد الأحمد فترة الحكم العثماني الثاني وبعدها فترة بداية ازدهار الدولة السعودية بعد توحيدها على يد الملك المؤسس المغفور له الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود في ظل استتباب الأمن وتوجه الدولة نحو تأسيس وتشييد المباني الحكومة والمرافق العامة من قصور ودوائر حكومية وأسواق وتوجه السكان والتجار نحو البناء والتشييد حيث كانت حركة البناء في تزايد مستمر مواكبة لهذه التطورات تمثلت في الكثير من المباني المعمارية التي ساهم الأستاد محمد الأحمد في تشييدها مع باقي أساتدة البنائين المعروفين .

ويعتبر الأستاذ محمد الأحمد الشبعان من أشهر وأمهر أساتدة البناء على مستوى الأحساء والخليج العربي، يعود إليه

[2] لقاء مسجل مع الأستاد عبدالله محمد صالح الشبعان، عن الأستاد محمد الأحمد الشبعان وتاريخ عائلة الشبعان وأشهر البنائين، الجمعة 2021/1/1م، قلعة الحرفيين، الهفوف .

الفضل في تخطيط وبناء الكثير من المباني التاريخية العريقة وسط الهفوف التاريخي، فلقد عمل هذا المعماري الفذ على تجديد وسط الهفوف التاريخي من خلال تلك المباني العظيمة التي عمل على تخطيطها وتنفيذها وجعلها شاخصة للعيان غيرت وجه الهفوف وأحدثت طفرة عمرانية غير مسبوقة شهد بها كل من عاصر تلك الفترة، تمثلت في مجموعة من المباني الحكومية والرسمية والخاصة والأسواق، مثل بناء سوق القيصرية وبناء عمارة القصيبي وبيت القصيبي والبوابة الجنوبية لقصر السراج و (الخواطيف) أو الجسور التي فوق الطريق الذي يفصل الإمارة عن بعض المرافق مثل المسجد المجاور لقصر السراج حيث كان الأمير يعبر من خلال ما يعرف ب (الخطف) جمعها (خواطيف) للمرور إلى المسجد، إضافة إلى الكثير من الأبنية المعمارية من مساجد ومبان سكنية وقصور. وكان يعمل تحت يده أكثر من ثلاثمائة عامل بين أستاذ وبنّاء وشاغول وغيرهم وتخرج كثير من المعماريين الكبار على يديه منهم أبناؤه الأستاذ معتوق والأستاذ حسن والأستاذ إبراهيم وكذلك غيرهم مثل الأستاذ محمد صالح الشبعان وثلة من معماريي عائلة العبد السلام وغيرهم كثير. ابتكر حسب ما يروي ابنه سماحة الشيخ عقيل الشبعان الكثير من الصنوف المعمارية مثل (السلة) والقبب المنصفة و (السراقات) جمع سرَّاقة أحد أنظمة التهوية في المباني التقليدية وغيرها، وله قصص كثيرة في الحلول المعمارية المبتكرة التي أوجدها، كما كان وجيهاً في محلته في فريج النجاجير في حي الكوت التاريخي فعلى الرغم من انجازاته العظيمة ومكانته البارزة بين الحكام والأثرياء إلا أنه كان شخصاً متواضعاً اجتماعي الطبع وكان مجلسه عامراً معروفاً ومفتوحاً يرد إليه الناس، كما أن أخواله من أسرة العبد السلام الذين كان لهم باع طويل في الجانب المعماري فجدّهم يعود إليه بناء مسجد القبة في قصر إبراهيم في عصر الدولة العثمانية، وقد كان للمعماري محمد الأحمد الشبعان لقاء مع الرحالة الإنجليزي (تشزمان) أثناء زيارته للهفوف في عام 1923م والمنشور في كتاب (في شبه الجزيرة العربية المجهولة) والذي ترجم إلى العربية في مئوية المملكة، حيث استوقف ذلك الرحالة الأجنبي ما يقوم به محمد الأحمد الشبعان من ابداعات عمرانية وجهود حثيثة في تخطيط المباني والإشراف

على البنائين وتوجيههم حيث كان في سباق مع الزمن لإنجاز المهمة الكبيرة التي أوكل لها من قبل الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه، حيث ذكر تشزمان: «يقوم المهندس المعماري محمد بن أحمد بالكثير من البناء للسلطان ولعائلة القصيبي، تعلم المهنة في بوشهر بفارس، وهو من مواليد الهفوف، وعمل فيما بعد بالكويت، وهو يعمل الآن مع السلطان مهندساً معمارياً للحكومة»[3] .

واجهة عمارة القصيبي في الهفوف
من إبداعات المعماري محمد الأحمد الشبعان

والقصص التي تروى عنه كثيرة. فهو لم يكن مجرد أستاذ بناء بل كان فاهماً وصاحب علم ومعرفة في كثير من الأمور، وتنسب إليه الكثير من الاجتهادات التي أدخلها في تطوير العمارة المحلية، منها (السيسر) أو ملقف الهواء على الطريقة الأحسائية، بالإضافة للعديد من الابتكارات، ويعد الشبعان أحد شيوخ صنعة البناء في الأحساء، وعرف بجمال وروعة أعماله وتصاميمه المعمارية والزخرفية في المباني الرسمية والشعبية التي أشرف على بناءها، وقد ورث عنه هذه الموهبة اثنان من أبنائه وهم الأستاذ معتوق والأستاذ حسن رحمهم الله جميعاً، وقد توفي الأستاذ حسن في عام 1996م، وقد استفاد الكثير من البنائين من خبرة آل الشبعان وتتلمذوا على أيديهم .

[3] آر. إي تشزمان، ، في شبه الجزيرة العربية المجهولة، ترجمة عبد الله بن محمد المطوع، محمد عبد الله الفريج، مكتبة الملك عبد الله العامة، الرياض، 1999م .

أعماله وإنجازاته المعمارية:

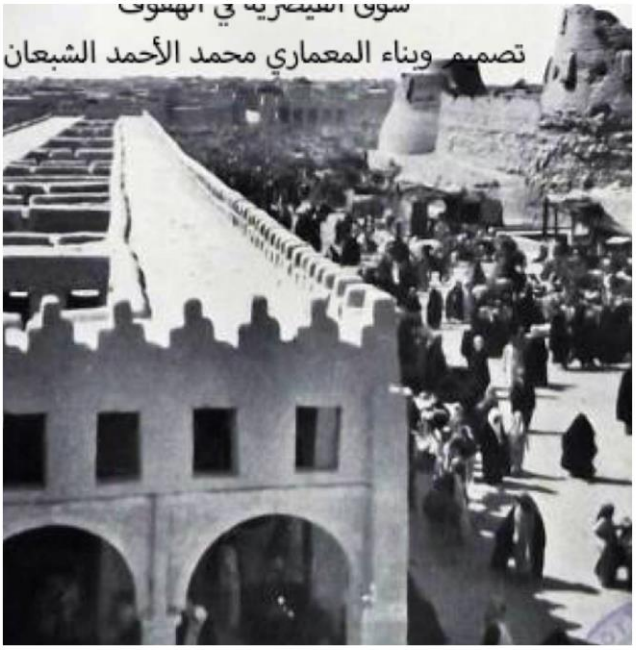

يتميز فكر المعماري الأستاذ محمد الأحمد الشبعان بتفرده عن باقي المعماريين في عصره فقد كان يتمتع بعقلية راجعة ومواهب عظيمة سخرها في خدمة وتطور حرفة البناء التقليدي في الابتكارات التي نفذها بكل اقتدار في المباني التي أشرف على بنائها وأصبحت فيما بعد مثالاً يحتذى به للجيل الذي عاصره من البنائين والأجيال اللاحقة، حيث عمل على تطوير العديد من الأنماط الزخرفية والمعمارية في المباني التي أشرف على تشييدها

منها أنماط العقود (الكمرات) التي تميزت بها عمارة الأحساء التاريخية، وأهمها العقد الإبراهيمي وهو أحد أنواع العقد المدبب، كذلك العقد المفصص الذي يأتي على شكل نصف دائرة تتخللها فصوص دائرية مثولثة أو مسوبعة أو متوسعة، والعقد المزخرف الذي يحتوي على زخارف جصية أحسائية تلتف على مدار العقد، والتي أصبحت من أشهر أنواع العقود المستخدمة في مباني الأحساء التاريخية .

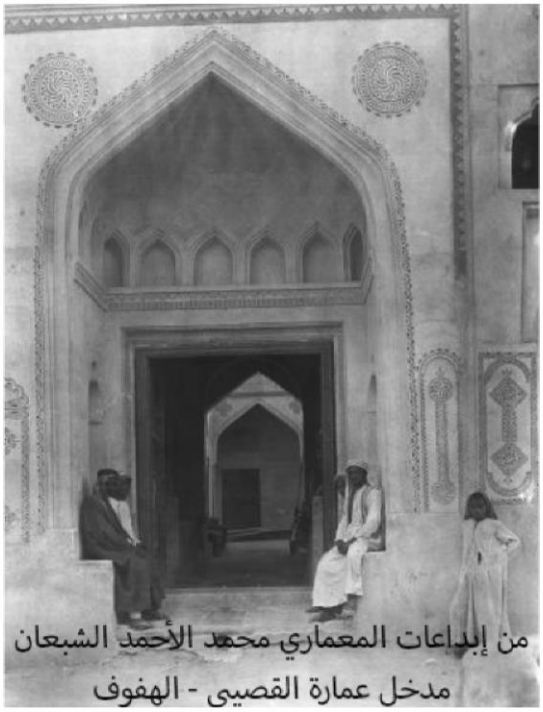
من إبداعات المعماري محمد الأحمد الشبعان
مدخل عمارة القصيبي - الهفوف

كذلك استفاد الأستاذ محمد الأحمد الشبعان من أسفاره وتنقلاته لزيارة العتبات المقدسة في العراق وإيران في تطوير فكره المعماري، حيث يذكر تشزمان أنه ذكر له أنه تعلم بعض التقنيات في مدينة بوشهر على الساحل الفارسي .

وقد ساهم الأستاذ محمد الأحمد الشبعان في تخطيط وتشييد العديد من المباني خارج الأحساء في أهم المدن الخليجية منها مدينة الكويت حيث ذاع صيته بلغت شهرته كافة مناطق الخليج العربي .

المصادر والمراجع:

- لقاء مسجل مع الأستاذ عبدالله محمد صالح الشبعان، عن الأستاذ محمد الأحمد الشبعان وتاريخ عائلة الشبعان وأشهر البنائين، الجمعة 2021/1/1م، قلعة الحرفيين، الهفوف .

- لقاء مع سماحة الشيخ عقيل بن معتوق الشبعان حفيد أستاذ البناء محمد الأحمد الشبعان وابن استاد البناء معتوق الشبعان .

- مقال لسماحة الشيخ عقيل بن معتوق الشبعان حفيد أستاذ البناء محمد الأحمد الشبعان وابن استاد البناء معتوق الشبعان عن حياة وانجازات المعماري محمد الأحمد الشبعان.

- لقاء مع أستاذ البناء حسن محمد الأحمد الشبعان، 11/5/ 1412هـ .

البناء التقليدي والنقوش الجصية في الأحساء، جمع سعيد عبد الله الوايل، الأحساء، الهفوف، منزل الراوي، شريط كاسيت + فيديو .

- لقاء مع أستاذي البناء علي عبد الوهاب علي المرزوق وياسين علي عبدالوهاب المرزوق، 1/11/ 1413هـ .

البناء التقليدي في الأحساء، جمع سعيد عبد الله الوايل، الأحساء، الهفوف، منزل الراوي، شريط كاسيت + فيديو .

- عبدالله الخماس، قصر إبراهيم، جريدة اليوم، ع 13147، 13يونيو 2009م .

- سعيد عبدالله الوايل، النقوش الجصية الأحسائية، الهيئة العامة للسياحة والتراث الوطني، الرياض، 1435هـ .